

الفصل الأول

التعليم في مصر
قبيل العصر الأيوبي

1875
1876
1877
1878

أماكن التعليم - جامع عمرو - جامع ابن طولون - الجامع الأزهر -
دار العلم - التعليم في القصور - خزائن الكتب. ظهور المدارس - مدرسة
الطرطوشى - مدرسة أبى الطاهر ابن عوف - مدرسة الحافظ السلفى -
أهم العلوم التى كانت تدرس فى العصر الفاطمى.

عندما دخل الفاطميون مصر فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) تحت قيادة جوهر الصقلى كان غالبية سكانها من أهل السنة على مذهبى مالك والشافعى. حقيقة إن التشيع كان معروفا بمصر قبل هذا التاريخ ولكن أصحابه كانوا قلة وغالبا ما تعرضوا لكثير من المضايقات والاضطهادات. من ذلك ما يذكره المقرئى من أن سودان كافور كانوا «يتعصبون على الشيعة»^(١) ولذلك لم يكن لهم نفوذ أو تأثير فى الحياة العامة سوى بعض الاضطرابات التى كانت تحدث عندما يحتفلون ببعض مناسبتهم العقائدية.

ولا شك فى أن هذا السبب دعا جوهر القائد إلى الإسراع فى بناء مدينة القاهرة لاتخاذها عاصمة للفاطميين بعيدا عن معقل أهل السنة فى القسطنطينية وغيرها. ويبدو أنه كان فى عجلة من أمره. إذ يقال، إنه بمجرد استسلام الإخشيديين له دخل «من الغد إلى مصر فى طبوله وبنوده وعليه ثوب ديباج مذهب ونزل بالمناخ وهو موضع القاهرة اليوم واختطها وحفر أساس القصر فى الليلة، ويات المصريون فى أن فلما أصبحوا حضروا للتهنئة فوجدوه قد حفر أساس القصر فى الليل»^(٢) وإذا كان هذا إحساس القادم الجديد الذى فتح مصر على رأس جيش من المغاربة حاملا مذهبها جديدا. فإنه بمجرد استيلائه على السلطة أعلن المذهب الشيعى مذهبها رسميا للدولة وصار العمل بمقتضاه فى القضاء والإفتاء وأنكر ما خالف ذلك من بقية المذاهب^(٣).

وعلى هذا الأساس بدأ جوهر سياسة الدولة الجديدة بفرض مذهبها والعمل على نشره. ولم يكن ذلك بالأمر السهل لأن معتنقى المذهب الجديد من المصريين لم يكونوا إلا فئة قليلة بالنسبة لباقي المصريين الذين رأوا فى المذهب الشيعى خروجاً عن معتقداتهم وآرائهم فى بعض جوانب الديانة.

ومن أجل أن يستوعب الداخلون فى هذا المذهب أحكامه ومعتقداته كان لزاما على الفاطميين نشر دعوة واسعة واتباع سياسة تعليمية تمكنهم من نشر مذهبهم. وكان أن بدأ نشاطهم يتغلغل إلى أماكن التعليم القائمة، حيث كانت تعقد حلقات العلم وخاصة فى جامعة عمرو وابن طولون.

(١) المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ١٩٨ - الخطط ج ٢ ص ٣٢٩.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٦ - انظر: العيى: عقد الجمال ج ١٠ سنة ٣٥٨ - السيوطى:

حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣. المقرئى: اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ - ١٦٢.

(٣) المقرئى: الخط ج ٢ ص ٣٤٢.

الواقع أن نصيب جامع عمرو من عناية الفاطميين كان عظيما جدا، وذلك بوصفه ركنا من أركان التعليم، فضلا عن كونه ركنا للصلاة والعبادة.

وقد جاء في سجل فاطمي بولاية مصر ما نصه « . . . وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصونه وتوفيره على ما يليق به وتوقيده، وامنع من ابتذاله في غير ما جعل له ونصب له من الإعلان بذكره فيه وأهله ووفر تام العناية وشامل الرعاية على من به من الفقهاء والعلماء والمتصدرين والقراء وخصهم بالتكرمة على المبالغة في طلب العلوم»^(١) وهذه العبارات تؤكد أن جامع عمرو كان معيدا تعليميا ضخما. وحظى طلاب العلم فيه برعاية الدولة سواء كانوا من السنيين أو الشيعة. وقد حظى هذا الجامع بالرعاية طوال عصر الفاطميين. ففي عهد العزيز بالله أمر وزيره يعقوب بن كلثوم بأن يعمل فيه فوارة كما جدد بياضه في سنة ٣٨٧ هـ^(٢). (٩٧٧ م). وحظى الواردون إلى الجامع باهتمام العزيز الذي خصص مائدة وطعاما لمن يحضر إلى الجامع في رجب وشعبان ورمضان^(٣). ومن أهم كتب الشيعة التي كانت تدرس بجامع عمرو «كتاب يعقوب بن كلثوم» الذي يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية كما سمعه بنفسه عن المعز لدين الله وابنه العزيز^(٤).

أما الحاكم بأمر الله فقد صنع له تنورا من الفضة وحمل إليه الفرش والحصر السامانية وقناديل الذهب والفضة وعلق الستر على الأبواب^(٥). كذلك عنى الحاكم بشئون العلم والمشتغلين به فزود جامع عمرو بمكتبة ضخمة نقلت إليه من خزائن القصر بلغت ألفا ومائتين وثمانية وتسعين مصحفا ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٢٣، ٤٢٤ - خطاب عطية: التعليم في مصر ص ١٠١ لم يذكر القلقشندي تاريخ إصدار هذا السجل ولا اسم الخليفة الذي صدر في عهده ولكن يبدو أنه صادر عن الخليفة الظاهر بأمر الله أبي منصور إسماعيل إلى عباس بن يحيى بن تميم الصنهاجي الذي تول الوزارة بعد مقتل ابن السار. والذي يدعو إلى الاعتقاد في ذلك ما جاء في مقدمة السجل بأنه صادر إلى أبي الفضائل عباس الظاهري ثم يذكر سبب تركيته لتول هذا المنصب «وقد عرف من موافقك المشيودة ومقاماتك المحمودة ما كان منك في نوبة مصال وجمع فلاله».

انظر: القلقشندي: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤١٩ - ٤٢٤.

(٢) القريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٤٩

(٣) القريزي: الخطط ج ٢ ص ٢٨٤

(٤) القريزي: الخطط ج ٢ ص ٣٤٠.

(٥) العيني: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٤٠٠ هـ - السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥١ - خطاب عطية:

ويمكن الناس من القراءة فيها^(١)، كما عين الرواتب لمن يأوى إلى المساجد من الفقهاء والقراء والغرباء^(٢).

ومع ذلك فإن علوم الشيعة لم تلق الإقبال الذى كان منتظرا لها فى جامع عمرو بعد أن ظل سنين طويلة معقلا لتدريس فقه المذاهب السنية حيث درس به كثير من علماء هذه المذاهب وعلى رأسهم الإمام الشافعى نفسه. لذلك أقبل الطلبة فيه على حلقات الفقهاء السنيين دون غيرهم. ومن ذلك ما ذكره السيوطى من «أن أبا النعمان إمام المالكية بمصر المتوفى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) كانت تدور حلقاته فى الجامع على سبعة عشر عمودا لكثرة من يحضرها^(٣). ومهنا يكن فى كلام السيوطى من مبالغة فإنه يكفى أن عبارته السابقة تؤكد أن الدراسات الخاصة بمذهب أهل السنة كانت لاتزال قائمة ومزدهرة فى العصر الفاطمى، كما يفهم من كلامه أيضا أن كثيرا من الفقهاء السنيين قاموا بالتدريس فى جامع عمرو فى ذلك العصر^(٤).

جامع ابن طولون :

أما جامع ابن طولون فقد حظى أيضا باهتمام الفاطميين، فقد حدث فى سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦م) أن احترقت بعض أجزائه فاستمر الجامع مهملًا حتى أمر العزيز بالله ببناء فوارة^(٥) عوضا عن التى احترقت وترميم باقى الأجزاء التى تأثرت بالحريق^(٦). وفى زمن الحاكم بأمر الله زود الجامع بثمانمائة وأربعة عشر مصحفا^(٧). وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد أنه كانت بهذا الجامع بعض الدروس ولكنها لم تكن فى حجم ولا أهمية الدراسات التى كانت تعقد فى جامع عمرو. ولذلك نجد أنه لم يكن لهذا الجامع ذكر كثير فى المصادر التاريخية خصوصا فى دولتى الفاطميين والأيوبيين. ولم يلعب جامع ابن طولون دوره فى الحياة العلمية إلا فى زمن المماليك. وهذا ما سنتناوله بالدراسة والبحث بعد ذلك.

وهكذا اضطر الفاطميون فى سبيل نشر مذهبهم إلى إتباع طريقتين، الأولى هى الإغراء والترغيب بقصر شغل المناصب على معتنقى المذهب الشيعى، والأخرى التهديد والوعيد. من

(١) المقرئى: الخطط ج٢ ص ٢٤٩ - السيوطى: حسن المحاضرة ج٢ ص ١٥١.

(٢) العيني: عقد الجمان ج١٠ ص ٤١٠ هـ.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة ج٢ ص ٢١٢، ٢١٣ - خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٠٥.

(٤) انظر السيوطى: حسن المحاضرة ج١ ص ١٨٨ - ٢١٣ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص ٣٩٠.

(٥) فوارة بمعنى فسقية وفى القاموس فوارة الماء: منهجه. انظر ابن منظور: لسان العرب ج٦. مادة فور.

(٦) المقرئى: الخطط ج٢ ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٧) المقرئى: الخطط ج٢ ص ٢٦٦.

ذلك ما ذكره المقرئى من أنه حدث فى سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) أن «ضرب رجل بعصر وطيف به المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب الموطأ لملك بن أنس^(١) كما قبض على ثلاثة عشر رجلا وضربوا وشهروا وحبسوا ثلاثة أيام لأنهم صلوا صلاة الضحى^(٢)».

الجامع الأزهر:

على أن جوهرًا لم يقنع بما فى مصر من جوامع قديمة كانت منذ تأسيسها مراكز للمذهب السننى، وإنما بدأ بإنشاء جامع جديد ليكون مقرا ومركزا لتعليم فقه المذهب الشيعى. وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) عندما وضع جوهر أساس الجامع الأزهر الذى تم بناؤه فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ^(٣) (٩٧٢م).

وبذلك اكتملت أركان القاهرة وصار الأزهر مركزا لعلماء الشيعة الذين سبقوا المعز فى الحضور إلى مصر أو الذين حضروا فى صحبته. وسرعان ما بدأ استخدام الأزهر فى المهمة التى أنشئ من أجلها. ففى صفر سنة ٣٦٥ هـ (٦٧٥م) جلس به القاضى على بن النعمان وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن آل البيت، ويعرف هذا المختصر «بالاقتصار»، وحضر هذا المجلس جمع عظيم من الناس أثبت أسماءهم عنده^(٤). ومعا لاشك فيه أن الغرض الأساسى من بناء الجامع الأزهر هو أن يكون معهدا لفئة معينة من الطلاب الذين يقومون بدراسة الفقه الشيعى وفلسفته حتى إذا أتموا دراستهم قاموا بالدور المطلوب منهم وهو نشر الدعوة الشيعية ومعتقداتها بين الناس. أى إنه كان مركزا لتدريب دعاة المذهب وتخرجهم.

ولكنه لم يلبث أن تطور ليصبح جامعة من أهم الجامعات الإسلامية التى يقصدها المعلمون والمتعلمون وتم ذلك التطور بفضل جهود الوزير يعقوب بن كلس الذى بدأ أولى الخطوات لجعل منه معهدا دراسيا واسع النشاط. ذلك أن الوزير يعقوب بن كلس نفسه كان من كبار علماء المذهب الشيعى وكان يجلس لقراءة كتب الفقه وخاصة ما كتبه عن المعز والعزىز. فرتب العزىز

(١) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٣٤٠ أنظر أحمد أمين: ضحى الإسلام ج ٢ ص ٥٦.

(٢) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٣٤٠.

(٣) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٢٦٢ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٢. ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر ج ٨ ص ١٢١ - السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٤. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٤٨.

Creswell: Muslim Architecture. Part I. P. 21.

(٤) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٣٤٠ - محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٤١ - خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١١٢ - حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٢.

بالله خمسة وثلاثين فقيها لملازمة ابن كلس فى مجالسه العلمفة للتللمذ على ففده ورتب لهم الأرزاق الشهرفة الفف فكففهم وأمر ببناء دار لهم بجانب الجامع الأزهر فبأذا كان فوم الجمعة تحلقوا ففه بعد صلاة العصر وكان لهم من مال الوزفر أفضا صلة فى كل سنة^(١) وكانت هذه أول دراسة مننظمة بالأزهر ولا أدل على الاهتمام بهم من أنه تم تخصيص دار لإقامتهم وصرف الأرزاق المننظمة لهم بل وصل اهتمام العرفز بهم أن خلع عليهم فوم الفطر وحملهم على البغال^(٢) احتراماً وتقديراً لهم.

على أن الأزهر أخذ ففخلص نوعاً ما من النزعة المذهبفة بعد افتتاح جامع الحاكم الذى وضع أساسه العرفز بالله فباشرف وزفره ابن كلس لنقل الحلقات العلمفة الفف كانت تقام بالأزهر^(٣) إلفه. فلما مات العرفز بالله دون إتمامه أكمله الحاكم ونسب إلفه وأذن لمن فبببب بالأزهر أن فمضى إلفه^(٤).

ثم كان أن أنشأ الحاكم دار العلم وفحول معظم العلماء إلفها مما أفر فى المركز العلمف للجامع الأزهر. ولكن فبدو أن فحول العلماء عنه كان سبباً فى فجرده من الصبغة المذهبفة الفف لازمته منذ إنشائه، وأصبحت الدراسة فى أكثر فحرراً دون التقفد المطلق بالقفود المذهبفة^(٥). وساعد على ذلك ما أظهره الحاكم من التسامح فى أول سنف حكمه ففى درس بالأزهر بعض علماء السنة فى علوم الفلسفة والمنطق والطب والرفاضفات ولكن فى حدود ضفقة^(٦). ومع ذلك فأن إنشاء دار العلم لم فؤد بأفة حال إلى إهمال الجامع الأزهر. بل إن الحاكم رتب علىه بعض الأوقاف الفف تغل كل سنة ألفاً وسبعة وستفن فبناراً للرف منفا على عمارته وشراء ما فلزمة من فرش وحصر وما فستخدم فى نظافته وأرزاق من فه من الموظففن^(٧).

(١) المترفزى: الخطط ج٢ ص ٣٤٠ - انظر: ابن أففك الفوافرى: كنز الدرر ج٨ ص ١٢١.

خطاب عطفة: الفعلم فى مصر ص ١١٣، ١١٤ - حسن عبء الوهاب: فافرف المساجد الأثرفة ص ٥٢.

Creswell: Muslim Architecture. Part I. pp. 36-37.

(٢) المترفزى: الخطط ج٢ ص ٣٤٠.

(٣) المترفزى: الخطط ج٢ ص ٣٤٠ - انظر: ابن أففك الفوافرى: كنز الدرر ج٨ ص ١٢١.

خطاب عطفة: الفعلم فى مصر ص ١١٣، ١١٤ - حسن عبء الوهاب: فافرف المساجد الأثرفة ص ٥٢.

Creswell: Muslim Architecture. Part I. pp. 36-37.

(٤) المترفزى: الخطط ج٢ ص ٢٧٦.

(٥) محمد عنان: فافرف الجامع الأزهر ص ٥٦.

(٦) خطاب عطفة: الفعلم فى مصر ص ١١٥.

(٧) المترفزى: الخطط ج٢ ص ٢٧٤.

تولى الحاكم بأمر الله الخلافة فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م). وكان منذ صغره يشتغل بالآداب والدروس والنظر فى دقائق الأمور مثل النجوم والأرصاد والكيمياء والعزائم والطلسمات وسائر علوم الرياضيات. ولكنه كان شغوفا بعلم النجوم. عمل رسدا واتخذ بيتا فى المقطم ينقطع فيه عن الناس لإجراء دراساته وتأملاته^(١).

ورجل بهذه الصفات لا بد أن يهتم بالعلم والعلماء، ويعمل على توفير الراحة للباحثين والمشتغلين بالعلم. ومن أجل ذلك قام الحاكم بإنشاء دار الحكمة التى فتحت أبوابها فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة (١٠٠٥ م) وجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأطباء، وجمع فيها من الكتب فى سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعا^(٢). وبعبارة أخرى فإنه جعل منها جامعة شاملة لكافة العلوم المعروفة فى عصره. وأظهر الحاكم تسامحا واعتدالا فى أول حكمه إذ جعل التعليم فى دار الحكمة حرا، لكل فرد أن يختار من العلوم ما يشاء، من ذلك ما يذكره العيني من أنه نقل إليها كثيرا من الكتب التى تتعلق بالسنة^(٣). وهكذا سمح بالاستغفال لفقهاء المذاهب السنية جنبا إلى جانب مع فقهاء الشيعة. ولعل سماح الحاكم بهذا القدر من الحرية جاء اعتقادا منه أنه طالما كان التعليم حرا والمناقشة والمناظرة مكفولة للجميع دون الخوف من عقاب السلطة، فإن هذا من شأنه أن يؤدى إلى اعتناق بعض علماء السنة لمبادئ المذهب الشيعى مما يساعد بدوره على دخول كثيرين من عامة المصريين فى ذلك المذهب أسوة بعلمائهم.

كان لتسمية هذه الدار بدار العلم أو بدار الحكمة مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر الذى اختاره لهذا المعهد^(٤).

وقد قمت هذه الدار إلى عدة أقسام أى قاعات للمحاضرات حسب العلوم التى تدرس أو تبحر فيها من طب وتنجيم وفلك وفلسفة، عدا علوم الفقه على مذاهبه وعلوم اللغة

(١) الميرزى: الخطوط ج ٢ ص ٢٨٨. ابن أبيك الدرادارى: كنز الدرر ج ٦ ص ٢٥٦ : ٢٥٧.

(٢) الميرزى: الخطوط ج ٢ ص ٣٤١. ابن سعيد: المغرب: حلى حضرة القاهرة ص ٦٠.

Lane - Pool: The Story of Cairo p. 142.

الترجمة العربية ص ١٢٦.

(٣) العيني: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٤١٠ هـ -- غنيمة: تاريخ الجامعات ص ٥٨ . ٥٩. محمد عنان تاريخ

الجامع الأزهر ص ٥٢.

(٤) محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥١.

والقراءات والحديث وغيرها. كذلك تم تزويدها بمكتبة ضخمة كانت خير عون للباحثين والدراسين بها مع توفير الأموال اللازمة للصراف منها على أرباب الوظائف والمشتغلين بالعلم، فأجرى على من فيها من الخدام فضلا عن المعلمين والمتعلمين الأرزاق السنوية، ووفر بها ما يحتاج إليه رجال العلم من الحبر والأقلام والمحابر والورق^(١) لمن يريد القراءة والإطلاع أو لمن يريد النسخ والنقل.

ونتيجة طبيعية لهذا التسامح الديني من ناحية والرعاية المادية لأهل العلم من ناحية أخرى فضلا عن تهيئة الجو العلمي الملائم للجميع هرع إلى دار العلم العلماء والطلاب من كافة المذاهب وسائر البلاد.

ومن علماء السنة الذين اشتغلوا بالتدريس في دار الحكمة الحافظ أبو محمد عبد الغنى، وكان عالما من علماء الحديث حافظا له ومن مؤلفاته «مشتبه النسبة» وكتاب المؤلف والمختلف. وكذلك أبو أسامة جناده محمد اللغوى، وكان يتولى التدريس بجامع عمرو وأبو الحسن بن سليمان الأنطاكي النحوى^(٢).

كذلك انتقل إلى دار العلم داعى الدعاة، وكانت وظيفته القيام بقراءة كتب الفقه الخاصة بالشريعة وأصول العقيدة وأخذ اليهود على من ينتقل إلى مذهبه^(٣). وأدى شغف الخليفة الحاكم بأمر الله بالتنجيم والكيمياء بالذات إلى أنه فتح الباب أمام الباحثين في هذه العلوم من فلاسفة وأطباء ومنجمين. وفي ظل رعايته استطاعت دار الحكمة أن تنمو بسرعة بحيث لم يمض سوى قليل حتى ازدهرت وسار ذكرها في الآفاق وهرع إليها الطلاب من سائر الأقطار، وتبوأ مركز الزعامة في الدراسات العلمية والفقهية^(٤).

(١) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٢٤١ - ابن سعيد: المغرب: حلى حضرة القاهرة ص ٦٠. أحمد شلبي: تاريخ التربية ص ١٥٦. محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٢. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٥٦، ١٥٧.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩٠. الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٣ ط ١٣ ص ١٠٤٧، ١٠٤٩. ابن العماد: شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨٨. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٦١، ١٦٢ - غنيمية: تاريخ الجامعات ص ٥٩.

Encyclopaedia of Islam. Vol. 3 Part I. p. 353.

(٣) غنيمية: تاريخ الجامعات ص ٥٩ - خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٦٠، ١٦١.

(٤) محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٤.

وكان الحاكم يقرب العلماء من شتى الفروع مثل على بن رضوان الذى عينه الحاكم رئيسا على سائر المتطبيين^(١) والعالم ابن الهيثم الذى حضر إلى القاهرة واشتغل فى الجامع الأزهر. وكان ابن الهيثم نابغا فى علم الهندسة والمنطق وغير ذلك من سائر العلوم. وسمع الحاكم عنه أنه يقول بمشروع لو نفذه على نيل مصر لأنها شر الفيضانات زعم به النفع، وفلا استدعاه الحاكم وأرسله إلى أعلى النيل مع جماعة الصناع وعندما رأى ابن الهيثم كثرة تكاليف المشروع واستحالة القيام به خاف أن يقول ذلك للحاكم حفاظا على حياته من بطشه فلم يجد طريقا إلى الخروج من مأزقه إلا إظهار الجنون والخيال^(٢).

وممن حظى برعاية الحاكم وعطفه أبو الحسن على بن أبى سعيد صاحب كتاب الزيج الحاكى، وكان بارعا فى علم النجوم شديد العناية بعلم الرصد وكان يدخل على الحاكم فيكرمه^(٣).

ولكن عرف عن الحاكم تقلب أخلاقه وأحواله وكثرة تردده وازدواج شخصيته بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء^(٤)، فنجده بعد ما أبداه من التسامح مع أهل السنة والسماح لهم بالتعليم وإقامة المحاضرات ومجالس الإملاء بدار العلم، سرعان ما عاد إلى التشدد والتعصب للمذهب الشيعى، فأمر بقتل العلماء السنين الموجودين بدار الحكمة، فقتل أبا أسامة والأنطاكى وخلقا كثيرا من أهل السنة^(٥). أما الحافظ عبد العنى فقد اختفى حتى لا يتعرض لنفس المصير. وكان لهذا التصرف أثره السيئ على أهل السنة وزعزعة ثقتهم

(١) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٠١.

(٢) التتقى: تاريخ الحكماء ص ١٦٦، ١٦٧. أحمد أمين: ظهير الإسلام ج ٢ ص ١٩٣، ١٩٤. حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٥٧٩.

(٣) العنى: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٣٩٩ هـ. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩. السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٨ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٤١.

(٤) القريزى: الخط ج ٢ ص ٢٢٨ - العنى: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٣٨٦.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦، ١٧٨ - التتقى: تاريخ الحكماء ص ١٦٦. السيوطى: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٩. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٧٩.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٩٠ - العنى: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٤٠٠ هـ. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٣ ص ١٨٩. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٦٢ غنيمة: تاريخ الجامعات ص ٦٠.

فى دار الحكمة وفى الحاكام نفسه الذى كان قد أظهر ميلا للمذهب المالكى وسمح للناس بصلاة الضحى والتراويح وأعاد الأذان إلى سابق عهده، فرجع فى كل ذلك وعاد إلى سيرته الأولى «وأعيدت قراءة المجالس بالقصر على ما كانت»^(١).

ومع ذلك فقد استمرت دار الحكمة فى أداء رسالتها العلمية إلى أن اضطربت شئونها فى عهد الخليفة المستنصر وانتهى الأمر إلى أن أغلقت فى أوائل القرن السادس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) أيام الخليفة الأمر بأحكام الله إذ أغلقها الأفضل بن أمير الجيوش بسبب اجتماع الناس فيها و الخوض فى المذاهب خوفا من الاجتماع على المذهب النزارى، ثم عادت وفتحت أبوابها فى عهد الخليفة الأمر ووزيره مأمون البطائحي، واقتصر التدريس فيها على القرآن الكريم^(٢).

التعليم فى القصور :

أقام الفاطميون عدة مدارس بقصورهم اتخذت لها طابعا خاصا وتلامذة من نوعية معينة حيث يلتحق بها أولاد علية القوم وسراتهم. ويسير المؤدبون فى تثقيف هؤلاء الصبيان وتعليمهم على منهاج خاص يرمى إلى إعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية فى دولة الخلافة^(٣).

أما المجالس التى كان يعقدها الخلفاء فى القصور فكانت للبحث والمناظرة وكان يجتمع إليها الأدباء والشعراء «وساعد على ازدهار هذه المجالس شغف المصريين بالعلم وإقبال الأدباء على المناظرة طعما فى منح الخلفاء والأمراء والوزراء ونيل الحظوة عندهم»^(٤).

ولكن الحقيقة أن هذه المجالس إنما كانت تعقد بالدرجة الأولى لشرح الفقه الشيعى والدعوة له وترغيب الناس فيه. ويبدو أن هذه المجالس قد نجحت إلى حد كبير فى هذا الهدف. يذكر أنه فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) جلس القاضى محمد بن النعمان على كرسى بالقصر فى القاهرة لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المتقدم له ولأخيه بمصر ولأبيه بالمغرب فحات فى الزحمة أحد عشر رجلا^(٥). وهذا يدل على أن كثيرا من المصريين أقبلوا على اعتناق

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٤١.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ - محمد عنان : تاريخ الجامع الأزهر ص ٥٨. أحمد شلبى : تاريخ

التربية ص ١٥٧ - خطاب عطية : التعليم فى مصر ص ١٥٤ ، ١٥٥ . غنيمية : تاريخ الجامعات ص ٦٠.

(٣) أحمد شلبى : تاريخ التربية فى الإسلام ص ٤٩.

(٤) خطاب عطية : التعليم فى مصر ص ١٧٧ .

(٥) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٤٠.

هذا المذهب يؤيد ذلك ما جاء بسجل للدعوة والمشايعة لها والموافقة على مذهبها «واتل مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضر على المؤمنين والمؤمنات والمستجيبين والمستجيبات في قصور الخلافة الزاهرة»^(١).

على أن هذه المجالس لم تقتصر على قصور الخلفاء فقط، بل نجد كثيرا من الوزراء الفاطميين يقيمون هذه المجالس في قصورهم، فالوزير يعقوب من كلس «رتب في داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لجمعهم الأرزاق وألف كتابا في الفقه ونصب له مجلسا وهو يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وتجري بينهم المناظرات»^(٢) ويبدو أن هذا المجلس كان خاصا بطيقة المتعلمين والمتقنين فقط. إذ كان يعقوب بن كلس يعقد مجلسا آخر في يوم الجمعة ليقرأ مصنفاته على الناس بنفسه بحضور الفقهاء والقضاة ووجوه أهل العلم فإذا ما انتهى المجلس قام الشعراء لإنشاد مدائحهم فيه، كما أنه تكفل بإطعام طوائف الفقهاء في شهر رمضان^(٣). ومن الطبيعي أن يكون توفير الطعام في شهر رمضان لهم نتيجة ملازمتهم له وعقد الندوات يوميا طوال الشهر. كذلك كان هذا الوزير النابه وراء النهضة العلمية التي شهدتها مصر في عهد العزيز بالله، وهو الخليفة الذي كان يقدر وزيره حتى قدره حتى إنه عند وفاة ابن كلس في الخامس من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) بلغ من حزن العزيز عليه أنه أمر بغلاق الدواوين أياما من بعده وحضر جنازته وصلى عليه بنفسه^(٤).

ومثل ذلك يقال عن مجالس الوزير طلائع بن رزيك الذي تولى الوزارة للخليفة الفائز سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) وكان هذا الوزير شيعيا متعصبا، ولكنه محب للأدب والعلم والعلماء، صنف كتابا سماه الاعتماد في الرد على أهل العناد. وهو يتضمن إمامة علي بن أبي طالب والكلام على الأحاديث الواردة في ذلك، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه^(٥) وله مجلس في الليل يحضره أهل العلم للمناقشة في المسائل العلمية وتدوين ما يقوله من شعر. وكان العلماء يقدون إليه من

(١) التلخندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٧.

(٢) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٣٤٠.

انظر أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨.

(٣) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٣٤٠.

(٤) العيني: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٣٨٠ هـ ابن أبيك الدوادارى: كنز الدرر ج ٦ ص ٢٢٥. أبو الحسن.

النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٠٨.

(٥) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٢٩٣ - أبو الحسن: النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١١.

سائر البلاد فلا يخيب أمل من قصده منهم. ويذكر ابن خلكان أنه وقف على ديوان شعره^(١). كما يورد المقرئى بعضا منه وقد بلغ من اهتمامه بتعليم الصبيان أنه كان يرسل فى كل عام إلى أهل مكة والمدينة ألواح الصبيان التى يكتب فيها والأقلام والمداد^(٢).

خزائن الكتب :

ولع الخلفاء الفاطميون باقتناء الكتب ولعا شديدا. وخاصة أن معظمهم كان له اهتمام كبير بالعلوم لاسيما العلوم الدينية. ذلك أنهم دعاة مذهب جديد. والوسيلة إلى نشره هى المفاضة والمفاضة والإفتاع بأحقية الفاطميين فى الخلافة. هذا فضلا عما كانوا يدخلونه من نظريات وأصول جديدة فى الفقه لتأييد الدعوة وتنظيمها بالإضافة إلى اهتماماتهم الشخصية بعلوم النجوم والسر والفلك والفلسفة وغيرها. ولاشك أن الكتب هى الوسيلة الفعالة والأداة القوية لنشر علوم مذهبهم ودراسته بين الناس عامة وطلاب العلم خاصة بالإضافة إلى أنها دليل واضح على مقدار تقدم العلم والتعليم فى العصر وانتشار الآداب والعلوم^(٣).

وقد بدأت خزائن الكتب الفاطمية فى النمو منذ وصول المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة حيث أحضر معه الكثير من هذه الكتب. ويحكى عن المعز أن رجلا حمل إليه مصحفا يقال إنه كان ليحيى بن خالد البرمكى ووجده معجبا به، فدعا المعز بإحضار مصحف يفوقه خطأ وإذهابا وتجليدا وقال «هذا خط المنصور وإذهابه وتجليده بيده»^(٤).

وقد تركزت هذه الكتب بالخزائن الموجودة بالقصور وخزائن دار العلم والمارستان كذلك وجد بعضها بالمساجد. وكان اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكتب يفوق الوصف، لدرجة أنهم كانوا يقتنون من الكتاب الواحد العدد الكثير من النسخ. من ذلك ما يقال من أنه ذكر فى أحد مجالس العزيز بالله كتاب «العين للخليل بن أحمد فأمر العزيز خازن دقاره فأخرج من إحدى خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين ومنها نسخة بخط الخليل بن أحمد»^(٥). كذلك كانت تشتمل الخزائن على نسخ كثيرة من تاريخ الطبرى منها نسخة بخطه، ومائة نسخة من كتاب الجهمرة لابن دريد. وإلى جانب ذلك فقد كانت خزائن الكتب تحوى كتب السنة والفقه

(١) ابن خلكان: وفيات الأديان ج ٢ ص ٢٠٨. ابن سعيد: المغرب: حلى حضرة القاهرة ص ٢١٨ حسن

عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٩٧.

(٢) المقرئى: الخطط ج ٢ ص ٢٩٣.

(٣) خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٨٨.

(٤) المقرئى: اتعاظ التحفا ص ٢٠٢.

(٥) المقرئى: الخطط ج ١ ص ٤١٧. العيني: انيسف الهند ص ١٩٧.

على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتاريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء حتى كتب السحر والطمسبات. وبلغ عدد خزائن الكتب الموجودة بالقصر الكبير أربعين خزانة.

وكان الخلفاء كثيرون التردد على خزائن الكتب وخاصة خزانة المارستان فكان الخليفة منهم يتوجه إليها راكباً ثم يترجل على دكة منصوبة هناك ويجلس عليها ثم يحضر إليه متولى أمور المكتبة «فيحضر إليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب فإن عن له أخذ شئ منها أخذه ثم يعيده»^(١). وتحتوى هذه الخزانة على عدة رفوف فى دور ذلك المجلس العظيم، والرفوف مقطعة بحواجز وعلى كل حاجز باب يقفل عليه بمفصلات وقفل^(٢). مما يؤكد حرصهم على مقتنياتهم ضد الضياع أو السرقة.

وقد حظيت هذه الكتب بالناية والاهتمام، وعمل الفهارس الخاصة بها وترميم ما قد يتلف من أغلفتها وصفحاتها. وذكر ابن السبدي الذى تولى مهمة ترميم الكتب وفهرستها فى إحدى المرات أنه رأى من كتب النجوم والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء^(٣).

على أن الكتب الفاطمية تعرضت للنهب والسرقة فى وقت الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر فضلاً عما بيع منها. إذ حدث فى سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها (١٠٦٨م) أن تعرضت هذه الكتب لحملة من التبريد والتدمير بسبب سوء الحالة الاقتصادية حتى أن عبيد الفاطميين وإمامهم كانوا يأخذون جلود هذه الكتب «يرسم عمل ما يلبسونه فى أرجلهم»^(٤) فأتوا على الكثير من الكتب النادرة وما بقى منها أخذ الأتراك معظمه مقابل أرزاقهم المتأخرة.

ولم يكن اهتمام الوزراء الفاطميين بالكتب أقل من خلفائهم. فيكفى مثلاً أن الوزير الأفضل بن أمير الجيوش قد اشترى عشرة آلاف مجلدة دفعة واحدة من الطبيب افرائيم بن الزقان كان قد باعها إلى رجل من العراق «فلما سمع بذلك أراد أن تلك الكتب تبقى فى الديار المصرية ولا تنقل إلى موضع آخر فبعث إلى افرائيم من عنده بجملة المال الذى كان قد اتفق تميمه. . . ونقلت الكتب إلى خزانة الأفضل^(٥) وهذا يدل على أن المكتبة الفاطمية نمت سريعاً مرة أخرى وعوضت ما خسرت إبان عهد المستنصر حتى استردت مكائنها العظيمة فى عهد الخليفة العاضد.

(١) القرىزى: الخطط ج ١ ص ٤٠٨.

(٢) القرىزى: الخطط ج ١ ص ٤٠٨.

(٣) القفطى: تاريخ الحكماء ص ٤٤٠.

(٤) القرىزى: الخطط ج ١ ص ٢٠٨. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٩٥.

(٥) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٠٥. خطاب عطية: التعليم فى مصر ص ١٩٢.

فلما ملك صلاح الدين الديار المصرية استولى على كنوز الفاطميين وخرائثهم. ويصف أبو شامة خزائن الكتب بأنها كانت من عجائب الدنيا، لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى، ويقال: إنها كانت تحوى ألفى ألف كتاب^(١). وقد تولى الأمير بهاء الدين قراقوش الإشراف على كنوز الفاطميين والتصرف في كتبهم. فتخلص من عدد كبير من الكتب التي كانت تتحدث عن عقائدهم وملتهم، فأحرق الكثير من الكتب ورمى البعض الآخر في النيل أو رميت في حفرة عميقة وغطيت بالتراب^(٢). وفتح باب القصر أمام الراغبين في شراء ما تبقى من الكتب فحظى القاضى الفاضل بنصيب الأسد من تلك التركة إذ إنه دخل القصر قبل البدء في بيع الكتب واختار ما شاء منها، وبلغت جملة ما اشتراه من الكتب مائة ألف مجلد^(٣) وضعها في مكتبة مدرسته التي أنشأها بعد ذلك.

وقد تخصص يومان في الأسبوع لبيع تلك الكتب وتولى الدالون هذه المهمة تحت إشراف الأمير قراقوش الذى لم تكن عنده أية دراية بقيمتها العلمية أو الفنية، فكان الدالون يتلاعبون فيها ويبيعونها بأرخص الأسعار مع احتفاظهم بالكتب النفيسة لأنفسهم لبيعها بعد ذلك لحسابهم.

وكان العماد الكاتب قد حضر إلى القاهرة وذهب إلى القصر وشاهد ما جرى فيه فاشترى جملة كبيرة من الكتب. وعن ذلك يقول «واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت نفائس الأنواع ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان يمين أنعم على بها وأبرأ ذمتى من ذهبها ثم وهب لى أيضا من خزانة القصر ما عينت عينه من كتبها»^(٤).

ولعل أبلغ تعبير عما جرى للكتب الفاطمية في بداية العصر الأيوبي ما جاء عن لسان العماد أيضا ووصفه لخزائن الكتب وما انتهى إليه مصيرها «وفيها من الخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدى وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والانتهايم ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشام»^(٥).

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٠٠ - انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٦.

(٢) Encyclopaedia of Islam. Vol. 3. Part. 1. p. 353.

(٣) القريزى: الخطط ج ١ ص ٤٠٨. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٦٦.

Encyclopaedia of Islam. Vol. 3. part 1. p. 353.

(٤) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٦٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٠٠.

استمرت المساجد ودار العلم فى أداء رسالة التعليم التى عينتها الدولة الفاطمية وسخرتها لنشر مذهبها. ورغم وجود بعض التسامح والحرية العلمية فى الفترة الأولى من حكم الحاكم بأمر الله، إلا أنه سرعان ما عاد إلى نزعة التعسفية واضطهاد علماء السنة. وقد استمرت سياسة إخضاع التعليم وفقا لمذهب الدولة الرسمى طالما كان نفوذ الفاطميين قويا وسيطرتهم قوية على أمور الدولة. ولكن هذا النفوذ بدأ فى التدهور نتيجة لما أصابها من الكوارث الاقتصادية وخاصة فى عهد الخليفة المستنصر. إذ بدأ الوزراء يستبدون بالسلطة ويستأثرون بالحكم، وأظهر بعضهم شيئا من التسامح مع أصحاب المذاهب السنية وتركوا لهم حرية العبادة والدراسة. وكان هذا يبدو واضحا إذا ما قام فى الوزارة أحد السنيين.

ولكننا إذا تركنا القاهرة مركز الدعوة الشيعية وحاضرة الخلافة الفاطمية وجدنا بلدا مثل الإسكندرية لم تتأثر كثيرا بهذه الدعوة. ولم تكن السلطة فيها من القوة أو الشدة التى شهدتها القاهرة. فكان موقعها الجغرافى على ساحل البحر المتوسط غرب مصر مما جعلها مركزا لتجمع الحجاج المغاربة الذين يفدون إليها من المغرب الإسلامى والأندلس لأداء فريضة الحج. ولكثير من العلماء والدراسين الذين كانوا يرحلون فى طلب العلم إلى المشرق الإسلامى خاصة فى الوقت الذى بدأت تظهر ملامح النهضة العلمية ممثلة فى إنشاء المدارس التى أقامها نظام الملك الوزير السلجوقى فى العراق. أو للمجاورة لسماع الفقه والحديث فى الأراضى المقدسة سواء بالحجاز أو ببيت المقدس. يضاف إلى ذلك وضع الإسكندرية كميناء تجارى هام يسيطر على تجارة الشرق ويفد عليها الكثير من التجار من مختلف الجنسيات سواء من الشرق أو الغرب الأوروبى. فكان لمركزها التجارى ونشاط المعاملات التجارية بها أثرهما فى تسامح أهلها. كما كان لبعدها عن العاصمة وما يجرى فيها من منافسات بين الأمراء والوزراء حول السلطة أثره فى عدم انتشار المذهب الشيعى فيها وبقاء كثير من أهلها على مذاهبهم السنية وخاصة مذهب الإمام مالك الذى كانت له بالإسكندرية قاعدة راسخة وخاصة بين نزلائها من المغاربة والأندلسيين الذين كانوا يمرون ويستقرون فيها لبعض الوقت فى طريق سفرهم الطويل «ولكن كثيرا منهم وخاصة العلماء وطلاب العلم كانوا يؤثرون البقاء فى الإسكندرية واتخاذها وطنا ودار إقامة»^(١)

ونتج عن هذا الوضع الفريد لمدينة الإسكندرية أن بدأت تظهر فيها ملامح علمية وتعليمية اختلفت اختلافا كليا عن نظام التعليم الذى تتبناه الدولة.

(١) الشياخ: أعلام الإسكندرية ص ٥١، ٥٢.

مدرسة الطرطوشي :

ولد أبو بكر الطرطوشي^(١) حوالي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ببلدة طرطوشه من بلاد الأندلس وانتقل منها في طلب العلم إلى باقي بلاد الأندلس وأجاز له القاضي أبو الوليد الباجي بسرقسطة ثم تحول منها إلى بلاد المشرق طلبا للعلم فحج ثم تحول إلى البصرة وبغداد. وتعلم على فقهاء المدرسة النظامية ومعظمهم من الشافعية برغم أن أبا بكر الطرطوشي كان مالكي المذهب^(٢). ثم رحل إلى الشام وأقام بها مدة لازم فيها التدريس حتى ذاع صيته هناك. ثم طلب مدينة الإسكندرية فدخلها في أعقاب فتنة الوزير الأفضل بن بدر الجمال سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) والتي انتهت بقتل عدد من علمائها «فوجد البلد عاطلا عن العلم فأقام بها وبث علما جما وكان يقول: إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيديين من ترك وإقامة الجمعة وغير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم، أقول وجدت قوما ضللا فكنت سبب هدايتهم^(٣). ولم يمض عليه غير قليل بالإسكندرية حتى ذاع صيته واشتهر. وقصده الطلاب والعلماء، ولكن الوزير الأفضل لم يتركه وشأنه بل أخرجه من الإسكندرية وألزمه الإقامة بمدينة الفسطاط، ومنعه من التدريس ومنع الناس من الأخذ عنه. ولما ولي الوزارة المأمون البطانحي أكرم الشيخ وعظمه، وسمح له بالعودة إلى الإسكندرية حيث استأنف بها نشاطه العلمي والأدبي. ثم صنف للبطانحي كتابا في السياسة والحكم سماه سراج الملوك^(٤). وكان الشيخ قد تزوج بالإسكندرية من امرأة ذات ثراء فحسنت أحواله، ووهبت له دارا كبيرة فاتخذ الدور العلوي سكنا له ولزوجته «وأباح قاعتها وسفلها للطلبة فجعلها مدرسة ولازم التدريس وتفقه عنده جماعة من الإسكندرانيين^(٥)».

وكانت للشيخ الطرطوشي طريقته الفريدة في إلقاء دروسه. إذ كان يصحب طلابه في رحلات خارج المدينة حيث الهدوء والبعد عن الضوضاء، وقد استهوت هذه الطريقة عددا كبيرا

-
- (١) محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري المعروف بالطرطوشي ومنها أصله ويكنى أبا بكر: انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٦.
 - (٢) الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٦٠.
 - (٣) ابن فرحون الديباج المذهب ص ٢٧٨.
 - (٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٩٣، ٣٩٥ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٦٢، ٦٤ - ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٨ - ابن أبيك الصفي: الوافي بالوفيات ج ٥ ص ٢٧٧. السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٣ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٧٧.
 - (٥) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٦ - العيني: عقد الجمان ج ١٢ سنة ٥٧٦ هـ. الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٧١.

من الطلبة الذين أقبلوا على دروسه حتى قارب عددهم أربعمائة طالب. وكان يقوم على خدمة الشيخ وقضاء حوائجه أحد تلامذته وهو أبو عبد الله بن عبد الرحمن التجيبي الذي يصف نزجات شيخه فيقول بأنه «كان صاحب نزحة مع طلبته في أكثر الأوقات يخرج معهم إلى البستان فيقيمون الأيام المتوالية في فرجة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدر في حق الطلبة بل يدل على فضلهم وسلامة صدورهم. قال وخرجنا معه في بعض النزحة فكنا ثلاثمائة وستين رجلا لكثرة الآخذين عنه المحبين في صحبتته وخدمته»^(١) على أن شجرة الشيخ أبي بكر الطرطوشي ومدرسته كانت قد ذاعت وقصده الكثير من الدارسين من خارج مصر الذين رحلوا إليه للانتفاع بعلمه وفضله، يذكر العيني أن محمد بن تومرت صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بانغرب الذي رحل إلى الشرق واجتمع في العراق بأبي حامد الغزالي قد اجتمع أيضا بالشيخ الطرطوشي في الإسكندرية^(٢) للأخذ عنه.

واستمر الشيخ أبو بكر مقيما بالإسكندرية ملازما مدرسته ودروسه إلى أن توفي في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) فقام سند بن عنان أحد تلامذته لإكمال رسالة شيخه «وجلس لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبو بكر الطرطوشي»^(٣) وظل ابن عنان يدرس إحدى وعشرين سنة بمدرسة أستاذه إلى أن توفي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) ودفن بالقرب من قبر الطرطوشي^(٤).

ولعلنا نقف هنا وقفه قصيرة أمام هذه المدرسة، فالمعروف أن دور العلم التي أنشئت قبل ذلك كانت الدولة هي التي تقيمها وتبنيها، وتقوم بالصرف عليها سواء في دار العلم أو المساجد بالقاهرة التي كانت تنفق عليها الدولة الفاطمية وتحدد العلوم التي تدرس فيها، أو تلك التي أنشأها نظام الملك لصحابة المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني.

أما هذه المدرسة فلم تكن في حقيقة أمرها مدرسة بالمعنى العلمي الذي عرف فيما بعد، بمعنى أنه لم تتوافر لها أركان المدرسة من وقف يدعمها ويحدد عدد المدرسين والطلاب الذين يدرسون فيها ونوع الدراسة. وإنما كانت أشبه بحلقة دراسية التف فيها مجموعة من طلاب العلم حول شيخ سمعوا بفضله وعلمه للأخذ عنه. ولذا أطلق عليها اسم مدرسة تجاوزا بوصفها مكانا للدرس دون أن تتوافر لها أركان المدرسة مثلما هو معروف في مصطلح تاريخ العصور الوسطى.

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٢٧٧ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ٧٣.

(٢) العيني: عقد الجمان ج ١١ سنة ٥١٤.

(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب ج ١ ص ١٢٦ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٠٢، ١٠٣.

(٤) السيوطي: حسن الصحافة ج ١ ص ٢١٣ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٠٤.

مدرسة أبي الطاهر بن عوف: (١)

أحد تلامذة الطروشى النابيين الذين تتلمذوا فى مدرسته على مذهب الإمام مالك، وكان ابن عوف إمام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك وعليه مدار الفتوى، جمع بين الورع والزهد وكثرة العبادة ونزاهة النفس من بيت اشتهر بالفضل والعلم «وكان الشيخ أبو الطاهر ابن عوف ربيب الإمام أبى بكر الطروشى وقيل: إن خالته كانت تحت الطروشى وعليه تفقه وبه انتفع فى علوم شتى» (١).

أقيمت له مدرسة بالقرى أنشأها له رضوان بن ولخشى وزير الخليفة الحافظ لدين الله سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧م). وإذا كانت مدرسة الطروشى أول مدرسة أنشئت بالإسكندرية فإنها إذا جاز التشبيه مدرسة أهلية أو مدرسة خاصة يرجع الفضل فى إنشائها واستمرار التدريس فيها لشيخها ومن تلاه من تلامذته. أما هذه المدرسة (العوفية) فتختلف اختلافا كبيرا عن المدرسة الأولى، حقيقة إن كلا المدرستين قد أقيمتا لتدريس علوم السنة. لكن الاختلاف هنا أن الخليفة الحافظ الفاطمى هو الذى احتضن هذه المدرسة ووفر لها من الأموال ما يضمن لها الاستمرار والبقاء. الحقيقة التالية أن الذى سمح أساسا بإنشاء هذه المدرسة هو الوزير رضوان بن ولخشى الذى كانت بيده السلطة الفعلية. ومن واقع السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى بتعيين أبى الطاهر بن عوف مدرسا لهذه المدرسة نستطيع أن نُكوّن صورة واضحة عن هذه المدرسة. أسباب نشأتها وطريقة تمويلها.

فمثلا نجد من أسباب إنشاء هذه المدرسة موقع مدينة الإسكندرية وميزة ثمرها لما يشمل من المرابطين والفقهاء ومن يستوطنونها أو يرحل إليها طلبا للعلم، ثم رغبة الخليفة فى إيجاد معهد مناسب لهم يجمع شملهم... وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه والطارئين عليه، مشتتو الشمل متفرقوا الجمع... أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلذذين ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين وخرجت أواجره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة» (٢) واشتملت مباني المدرسة على مساكن للطلاب. لكى تكون «مستقرا لهم ومقاما وثوى لجميعهم ووطنا ومحلا لكافتهم وسكناء» (٣).

(١) اسماعيل بن مكى بن اسماعيل عيسى بن عوف... بن عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله ﷺ «٤٨٥»

٥٨١ هـ - ١٠٩٢ - ١١٥٨ م.

(٢) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٩٥، ٩٦ - السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢١٣ ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٦٨ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١١٣

(٣) انشبال: أعلام الإسكندرية ص ١١٣، رضى محمد حسن فنون الإسلام ص ٦٥ السيد عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية ص ٦٣، ٦٤.

(٤) التلقندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٨.

(٥) التلقندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٨، ٤٥٩.

ورتب لهم الخليفة ما يحتاجون إليه فى معاشهم أثناء إقامتهم بالمدرسة - كما يذكر السجل- « وأن يكون ما ينصرف إلى مؤنة كل منهم والقيام بأرده وإعانتة على ما هو بسبيله وبصده من عين وغلة مطلقا من ديوانه»^(١) . والملاحظ أن السجل يؤكد كفالة الطلبة من ناحية الإقامة وتوفير ما يحتاجون إليه، ولكنه لا يذكر شيئا أو أغفل ذكر أى شىء بشأن صرف مرتبات نقدية للطلبة المقيمين بالمدرسة.

كما يعطينا السجل صورة عن مكانة أبى الطاهر بن عوف العلمية، وأنه بسببها قد اختير لتدريس هذه المدرسة «واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أياها الفقيه الرشيد. لنفاذك واطلاعتك وقوتك فى الفقه واستضلائك ولأنك الصدر فى علوم الشريعة»^(٢).

أما المواد التى درست بهذه المدرسة فقد كانت خاصة بعلوم الشريعة، كما حددها السجل «وأمر أمير المؤمنين أن تدرس علوم الشريعة للراغبين، وتعلم ماعلمك الله إياه لمن يريد من المؤثرين والطالبين»^(٣). ثم يقرر السجل أن يقوم الموظفون بالثغر برعاية المدرسة وطلبة العلم النازلين فيها، والاهتمام بمصالحهم، وأن يتلى هذا المنشور بالمسجد الجامع وأن يحفظ السجل بالمدرسة حجة بما تضمنته حماية لهم من سطوة أى من متطرفى الأمراء أو الوزراء الشيعة إذ ينص السجل «وليخلد بهذه المدرسة حجة بما تضمنه إن شاء الله عز وجل»^(٤). وقد استقرت هذه المدرسة قائمة بالإسكندرية حتى نهاية الدولة الفاطمية وسقوطها على يدالسلطان صلاح الدين الأيوبي، فحظى عنده ابن عوف بمكانة كبيرة. وكان صلاح الدين يرأسه ويستفتيه. وقيل: إن ابن عوف كان السبب فى تجديد الصادر بثغر الإسكندرية وهو شىء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية شيئا «زائدا على العشر رتبه لفقهاء الثغر. دنائير تصرف كل شهر»^(٥).

مدرسة الحافظ السلفى:

ولد الحافظ السلفى^(٦) بمدينة أصبهان وهناك اختلاف فى تاريخ مولده. عموما ولد فى الفترة ما بين ٤٧٢-٤٧٥هـ (١٠٧٩-١٠٨٢م) يذكر ابن خلكان أنه ولد فى سنة ٤٧٥هـ تقريبا بينما يذكر

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٩ - الشيال: اعلام الإسكندرية ص ١٢٢

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٩.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٩.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٥٩ - الشيال: اعلام الإسكندرية ص ١٢٣.

(٥) ابن فرحون: الديباج المذهب ص ٩٦.

(٦) الحافظ أبو ظاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهانى الملقب صدر الدين: انظر:

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١٨٧. ابن شداد: النور السلطانية ص ٩. ابن كثير البداية والنهاية ج ١٢

الذهبي أنه مما شوهد بخطه - أي خط السلفي - مولدى سنة اثنتين وسبعين تخميناً^(١) وتلقى أول تعليمه فى بلدة أصبهان حيث سمع على شيوخها وحدث عنهم، ثم ترك وطنه فى سنة ٥٠٣هـ (١١٠٩م) مرتحلاً فى طلب العلم فدخل «بغداد، ثم حج وسمع بالحريين والكوفة والبصرة وهمزان وزنجان والرئ»^(٢). وغيرها من البلاد. ثم توجه إلى الشام ومنها إلى الإسكندرية بطريق البحر فى سنة إحدى عشرة وخمسمائة^(٣) (١١١٧م). وكان السلفي عند قدومه الإسكندرية فقيراً معدماً، فحذا حدو الطروشى وتزوج من أهلها بامرأة ذات بستان فحصلت له الثروة^(٤).

واشغل السلفي منذ نزوله الإسكندرية بالتدريس، وتدريس الحديث بوجه خاص فلم يلبث أن ذاع صيته وأقبل عليه الطلاب، ولعل ما أغرى السلفي بالإقامة فى الإسكندرية هو أن غالبية سكانها من السنين، كذلك ربما كان للمدرسة التى أنشأها الطروشى والنشاط العلمى وكثرة المشتغلين بالعلم من أهل السنة باعثاً له ومشجماً على اختيار الإسكندرية دار إقامة. ولكن النشاط العلمى بالفسطاط جذب إليه حيث التقى فيها بعلمائها وأدائها، وتردد على حلقات العلم بجامع عمرو واتخذ له حلقة وسط هذه الحلقات كان يدرس فيها الحديث^(٥). وفى مدة إقامة السلفي بالفسطاط التى استمرت حوالى ثلاث سنوات توطدت صلته بعلماء مصر وفضلائها. كذلك استطاع أن يكسب ود أصحاب الكلمة فيها. ويذكر أن السلفي « كان له عند ملوك مصر الجاه والقوة والكلمة النافذة مع مخالفته لهم فى المذهب»^(٦). ثم يعود السلفي إلى الإسكندرية فى سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) ليزاول بها نشاطه، واستقر بها إلى أن تقلد ولاية الإسكندرية أبو الحسن على بن السلار، وكان سنياً شافعي المذهب فاحتضن السلفي بالعطف والرعاية مدة ولايته على الثغر، ثم استولى ابن السلار على الوزارة فى الخامس من شعبان سنة ٥٤٤هـ^(٧). (٤ ديسمبر سنة ١١٤٩م) ولقب بالمعادل وبنى له مدرسة سنة ٥٤٤هـ (١١٥١م)

(١) الذهبى: تذكرة الحفاظ ج ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٢.

(٢) ابن أعدد: مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٠٣، ٤٠٤ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٥.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧ - ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٠ - العيني: عقد الجمان ج ١٢ سنة ٥٧٦هـ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٠٧، ٣٠٨.

(٤) الذهبى: تذكرة الحفاظ ج ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٢ - ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٥ - النشال: أعلام

الإسكندرية ص ١٣٦ - أحمد شلبى: تاريخ التربية ص ٥٨.

(٥) النشال: أعلام الإسكندرية ص ١٣٨، ١٣٩.

(٦) الذهبى: تذكرة الحفاظ ج ٤ ط ١٦ ص ١٣٠١ - انظر السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٤٥ - ابن أبيك

الصفدى - الوافى بانوفيات ج ٧ ص ٣٥٤.

(٧) ابن أبيك الداودى - كنز الدرر ج ٦ ص ٥٥٣.

بالتغر وفوضها إليه^(١). وسميت هذه المدرسة أول الأمر باسم المدرسة العادلية نسبة إلى منشئها الوزير العادل بن السلار ولكنها سرعان ما عرفت باسم مدرستها.

وكان لإنشاء هذه المدرسة فرحة كبيرة عند أهل الإسكندرية وعبر أحد شعرائهم عن فرحته بقصيدة يمدح فيها العادل بن السلار ويفخر بوجود هذه المدرسة بالإسكندرية ومن بعض أبيات هذه القصيدة^(٢).

وكان الحافظ السلفي يقوم بالتدريس ويعاونه بعض المعيدين. ومن هؤلاء أبو المعالي رافع بن يوسف، عاون السلفي في بناء المدرسة كما كان يقوم بإعادة الدرس على أربعين طالبا من الصبيان ويؤم الناس في الصلوات.

أما العلوم التي كانت تدرس بهذه المدرسة فكانت تشتمل دروس الفقه والتفسير والحديث وبعض العلوم التي تتصل بها كالتاريخ وسيرة ابن هشام، وكان له في تدريسه طريقتان إحداهما: أن يقرأ نصا أو كتابا ويقوم بالشرح والتعليق عليه، أو أن يملأ أمالي خاصة من حفظه كان يسميها الأمالي الحديثية^(٣) ومن ذلك يتضح أن الدراسة في مدرسة السلفي بدأت في أول أمرها بدراسة التفسير والحديث بصفة خاصة بالإضافة إلى فقه الإمام الشافعي. ويبدو أن الدراسة الفقهية غلبت عليها فيما بعد حيث يذكر ابن خلكان « ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعية سواها »^(٤).

وكان الحافظ السلفي متأثرا بآداب شيخه ابن البطر في إلقاء الدرس^(٥). فكان يلتزم الأدب والوقار أثناء إلقائه للدروس فلا يشرب ولا يبزق ولا يتورك ولا يبدو له قدم، أيضا كان يلزم من يحضر عنده الدرس بالالتزام هذه الآداب واحترام قدسية الدرس فيذكر أن «سلطان مصر حضر

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧: انظر ج ٣ ص ٩٢، ٩٣- ابن شداد: النوازل السلطانية ص ١٠
ابن أسعد: مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٠٣، ٤٠٤ العيني عقد الجمان ج ١٢ سنة ٥٧٦ هـ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٢١، ٣٠٧.

(٢) لله در العادل المرتجى
أنشأها لنا مدرسة مثلها
بغداد دار العلم لم تفخر
ذى العز والتأييد والنصر
لم ينش في دهر ولا عصر
يمثلها قط على محر

انظر الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٤٠.

(٣) الشيال: أعلام الإسكندرية: ص ١٤٢.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٩٣

(٥) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٣ السبكي: طبقات الشافعية ج ٤ ص ٤٣ ابن أبيك الصغدي: الوافي بالوفيات ج ٧ ص ٣٥٤ - الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٤٣.

عدة أسابيع فشرع يتحدث مع أخيه فزبرهما^(١). وقال: ايش هذا نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان»^(٢).

وكانت للسلفى مكانته فى المجتمع السكندرى وله الكلمة النافذة عند الولاية برغم مخالفته لهم فى المذهب. وذاع صيته وقصده الناس ورحلوا إليه وسمعوا عليه أماليه فى الحديث، وانتهى «إليه علم الإسناد روى عنه الحفاظ فى حياته وله تصانيف وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية»^(٣). والدليل على ذلك أن يذكر كل من ابن خلكان وابن عساكر أنها لم يحظيا بالسمع منه ولكنهما سمعا من جماعة من أصحابه.

وكان السلفى مغرما بجمع الكتب، وكانت عنده عدة خزائن لها، أنفق معظم أمواله فى شراء الكتب واقتنائها ورغم ذلك فكان «لا يتفرغ للنظر فيها فعنتت وتلصقت لنداوة البلد»^(٤). واستمر السلفى مقيما بالإسكندرية مكبا على الاشتغال بالتدريس والمطالعة والنسخ وشاهد سقوط الدولة الفاطمية. وحظى عند صلاح الدين وأسمعه وأولاده الحديث.

الدراسات والعلوم فى العصر الفاطمى:

لا شك أن العصر الفاطمى تميز بنوع خاص من الدراسات التى تختلف عما درج عليه المصريون. هذه الدراسات تتعلق بالعميقة. إذ كان للشيعنة فقههم الخاص الذى يخالف فقه أهل السنة فى كثير من الوجود، كما كانت لهم نظرة خاصة فى علم الحديث، أما باقى العلوم كالعلوم اللغوية وغيرها فإنها لم تتأثر بشىء، نظرا لثباتها وعدم ارتباطها بشىء يدعم مركز الشيعة فى ادعائهم بأنهم ورثة رسول الله ﷺ، ولكنهم استغلوا بعض هذه العلوم من جهة أخرى فى الدعاية لذهبهم فتمت وازدهرت نتيجة لذلك، وبالأخص الشعر لأنهم وجدوا أن الشعراء من أصلح الدعاة فاحتضنهم وأجزلوا لهم العطاء ليطلقوا أسنتهم بالقول فى مدح ومذمهم^(٥)، وأصبحت نصر فى عهد الفاطميين مقصدا لكثير من الشعراء الذين و

(١) بمعنى زجرهما أو نباحهما أو منعهما انظر تاج العروس ج ٢ مادة زبر.

(٢) الذهبى: تذكرة الحفاظ ج ٤ ط ١٦ ص ١٣٠١ - ١٣٠٢ - السبكي طبقات الشافعية ج ٤ بينما يذكر ابن أبيك الصفى أن حديث السلفى كان موجها لصلاح الدين وأخيه - انظر الوافى بالوفيات ج ٧ ص ٣٥٤.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٠ - ابن أسعد: مرآة الجنان ج ٣ ص ٤٠٣، ٤٠٤.

(٤) الذهبى: تذكرة الحفاظ ج ٤ ط ١٦ ص ١٣٠٣ - ابن أبيك السندى: الوافى بالوفيات ج ٧ ص ٣٥٤ انظر ابن العماد: شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٥٥. الشيال: أعلام الإسكندرية ص ١٤٨، ١٤٩ وتوفى انحافظ السلفى فى ربيع الآخر سنة ٥٧٦هـ (١١٨٠م).

(٥) انظر: السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٣، ٣٢٤ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ ص ٦٤ الثعالبى: تقيمية الدرر ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٩٥ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٠٦ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٥٥١ - ٥٥٢ - ذو النون: عمارة البنى ص ٤٨ - ٥٧.

عليها من المغرب و العراق والشام واليمن بالإضافة إلى الشعراء المصريين. وصاحب ذلك أيضا ازدهار في الدراسات النحوية، وظهر بعض النحاة المتمكنين ومن أشهرهم أبو بكر الأذوقى الذى ألف كتابا فى علوم القرآن فى مائة وعشرين مجلدا، وابن بابشاد الذى ألف شرحا على كتاب الجمل للزجاج والمحتسب فى النحو. وكان لديوان الإنشاء الفاطمى أثره الكثير فى تقدم النثر بصفة خاصة^(١).

أما العلوم التى حظيت بالرعاية، وتوفرت لها سبل النمو والازدهار فى تلك الفترة فهى علوم الفلسفة والنجوم والطب، وقد توفرت الرعاية للمشتغلين بهذه العلوم نتيجة لاهتمام الخلفاء الفاطميين واشتغالهم ببعض هذه العلوم، بل وتعمقهم فيها. أو لأنها علوم تساعد فى فهم الدعوة الشيعية والدعاية لها.

الفقه:

كانت الدراسات الفقهية فى مصر قبل الفتح الفاطمى تدور حول دراسة فقه مالك والشافعى، لأن غالبية المصريين كانوا ينتمون إلى هذين المذهبين إلى أن استولى الفاطميون على الحكم، وبدءوا فى نشر مذهبهم الذى صار المذهب الرسمى للدولة، وصار العمل به فى القضاء والفتيا. وكان المذهب الشيعى الذى أدخله الفاطميون مصر له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ويأتى بشعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين^(٢). كذلك كان الخلاف فى النظر إلى مسألة الخلافة وهى مسألة سياسية صبغت باللون الدينى، فالشيعية يرون أن عليا ونسله لهم الحق فى الخلافة دون غيرهم^(٣). وقد صاحب دخول الفاطميين مصر عدد كبير من علماء بذهبهم، ماهرون فى الدعوة واقفون على أسرار تعاليم أهل البيت، وأشهر هؤلاء العلماء النعمان بن محمد وكان مالكي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية وله ردود على المخالفين لمذهبه، له رد على ابن حنيفة ومالك والشافعى وابن سريج^(٤). ثم ابنه محمد بن

(١) انظر: ابن خلكان. وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠. السيوطى: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠، ٣٠٦، ٣٠٧. أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٠٥ وما بعدها إلى ٢١٥.

(٢) انظر الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٣٢٤ وما بعدها - أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ١٨٨. ابن الأكتفى: إرشاد القاصد ورقة ٢٢، ٢٣.

(٣) انظر الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٧، ٢٧٨ - ابن حزم: الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١١٢، ١١٣ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ٢ ص ٥.

(٤) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٨ إلى ٥٦ - المقرئ: الخط ج ٢ ص ٣٤٠.

ابن أبيك الصفى: الوافى بالوفيات ج ٥ ص ١٣١، ١٣٢ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ١٩٦، ١٩٧.

النعمان قاضى المعز وألف فى العقائد الشيعية الكتاب المسمى «البلاغ الأكبر والناموس الأعظم». كذلك كان الوزير يعقوب بن كلس من أكبر علماء المذهب الشيعى. وله مؤلفاته فى الفقه التى سمعها عن المعز والعزيم وكان له دوره المعروف وجهوده التى بذلها فى نشر الدعوة وتحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية.

وقد تعددت مظاهر الخلاف بين الفقه الشيعى والفقه السننى فى كثير من الشعائر. وتبدأ هذه الاختلافات بالأذان، فنجد أن الشيعة ينادون «بحى على خير العمل». وكذلك فى الصلاة حيث يجهرون بالصلاة على على بن أبى طالب. وزيادة القنوت فى الركعة الثانية من صلاة الجمعة كما أنهم منعوا صلاة التراويح وصلاة الضحى.

كذلك كان لهم نظامهم الخاص فى الميراث بحيث أن البنت لا يرث معها إلا الأب أو الأم أو الزوج دون سائر الأقرباء. حتى يكون ميراث النبى ﷺ قد انتقل إلى ابنته فاطمة الزهراء وليس لأبناء عمومته.

نجد أيضا مظاهر الاختلاف فى صيام شهر رمضان حيث يصومون ويفطرون على حساب خاص بهم وليس اعتمادا على رؤية الهلال^(١).

وكان لهذا الاختلاف فى الفقه بين المذهب الشيعى وفقه أهل مصر السننى أن أوجد حركة واسعة من المناقشات بين فقهاء مصر لتفنيد آراء الشيعة وإثبات بطلانها، ولكنها كانت حركة مقيدة نتيجة لخضوع مصر للفاطميين. ولكن علماء السنة بالعراق حاولوا من جانبهم الرد على فقهاء الشيعة، وظهرت كتب الغزالي المستظهرى فى الرد على الباطنية وبيان فضائح الإمامية ومواهم الباطنية^(٢).

الحديث:

تأثر علم الحديث بالتالى طبقا للفكر والفقه الشيعى. وللشيعة عدة مؤلفات فى الحديث تختلف اختلافا جوهريا عن كتب أهل السنة. وقد أنكروا بوجه خاص جميع الأحاديث والتقرير التى ترجع فى حجتها إلى الخلفاء الثلاثة الأول قبل على، كما رفضوا الأحاديث التى

(١) انظر: المقرئى: الخطط ج٢ ص ٣٩٩ - أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ١٤٦ - أحمد أمين: ظهير الإسلام ج١ ص ١٩٤، ج٤ ص ١١١.

(٢) انظر: السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص ١١٦ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٥٤.

ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص ١٠ - ١٣ - أحمد أمين: ظهير الإسلام ج١ ص ١٨٨.

تجعل عليا تاليا لهؤلاء الخلفاء اعتمادا على قوله عليه السلام من كنت مولاه فعلى مولاه^(١). وكتب الحديث الخاصة بالشيعة تتميز بالرواية عن الأئمة وعن رجال الشيعة. ومن أشهرها كتب الكافي للكلييني ويحتوى على ١٦ ألف حديث، وكتاب ابن بابويه ويحتوى على أربعة آلاف وأربعمائة وستة وتسعين حديثا هذا بالإضافة إلى كتب نصير الدين الطوسي وغير ذلك من كتب محدثي الشيعة^(٢).

الفلسفة:

اهتم الفاطميون بالدراسات الفلسفية لأنها وسيلة قوية مقنعة لنشر الدعوة، ذلك أن كل دعوة جديدة لا بد لها لكي يكتب لها النجاح أن تعتمد على الجدل والمناقشة وإقامة الحجج والبراهين حتى يستطيع الداعي لها أن يقنع الناس بصحة مذهبه وبالتالي التأثير عليهم للدخول وترك ما توارثوه واعتقدوه. ونجد إحدى السجلات للدعوة يوصى الداعي «وكف كافة أهل الخلاف والعناد وجادلهم باللفظ والساد»^(٣). ومما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأى في أن للدين ظاهرا وباطنا، ومعنى صريحا ومعنى مؤولا، ولذلك التجئوا إلى الفلسفة اليونانية يستعينون بها على تأييد الدعوة الشيعية ويستمدون الآراء من أقوال أفلاطون وأرسطو وسائر حكماء اليونان^(٤).

أما مراحل الدعوة إلى المذهب الشيعي فكانت تنقسم إلى تسع مراحل. ففي المرحلة الأولى يحاول الداعي الشيعي أن يلقي على المرید بعض الأسئلة الفلسفية ربما لجذب انتباه المرید، وتحريك حب الاستطلاع والعرفة في نفسه فمثلا يسأل الداعي ما معنى قول الفلاسفة الإنسان عالم صغير والعالم إنسان كبير؟^(٥). ويستمر المرید ابتداء من المرحلة الأولى يتنقل في مراحل الدعوة واحدة بعد أخرى إلى أن يصل إلى الدعوة السادسة بعد أن يكون المرید قد اقتنع بأن أحكام الشريعة لها معان باطنة غير المعنى الظاهر لها فينقله الداعي إلى «الكلام في الفلسفة وحضه على النظر في كلام أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس ومن في معناهم ونهاه عن قبول الأخبار

(١) انظر ابن خلدون: المقدمة ص ١٨٦، ص ٢٩٥ إلى ٣١٢ - أحمد بدوي: الحياة العقلية ص ١٢٤ - عبد الحسين الأميني: التقدير في الكتاب والسنة ج ١ ص ١١.

(٢) انظر السمعاتي: الأنساب ص ٤٦٢ - ابن أبيك الصغدي: الوافي بالوفيات ج ٥ ص ٢٢٦ - أغا يزك: الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج ٢ ص ٢٢٦. ج ١٧ ص ٢٤٥، ٢٤٦ - أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ٤ ص ١٢٥ - خير الدين الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ١٥٩، ج ٨ ص ١٧.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٦ - ٤٣٧.

(٤) أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ١ ص ١٨٨ - ١٩٠.

(٥) المقرئزي: الخطط ج ١ ص ٣٩١.

والاحتجاج بالسمعيات وزين له الاقتداء بالأدلة العقلية والتعويل عليها^(١). ويستمر المريد في المرحلة السادسة من الدعوة إلى أن يتقن ما عين له ويستوعب ما هو مطلوب منه استيعابه من الفلسفة كوسيلة للتدرج والدخول في الدعوة السابعة وفيها يقوم الدعاء أيضا في تلقين المريد المزيد من القضايا والمشاكل «وأصلها مأخوذ من كلام الفلاسفة القائلين أن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد»^(٢) ويستمر المريد في هذا البرنامج المعد إلى أن يصل في نهاية اللطاف إلى الدعوة التاسعة وإذا ما تأكد الداعي أن المريد قد تأهل «لكشف السر والإفصاح عن الرموز أحاله على ما تقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية»^(٣).

ومن ذلك يتبين أن الدراسات الفلسفية في العصر الفاطمي كانت نشيطة لاعتماد دعوتهم اعتمادا شبه كلي عليها. ولذا نجد أن العلوم الفلسفية كانت تدرس بدار الحكمة، وفي المجالس التي عقدت في القصور. ولكن ذلك لم يمنع أن يدرس المنطق والفلسفة في المساجد خصوصا في الجامع الأزهر «وإن كان ذلك في حدود ضيقة»^(٤).

النجوم:

من العلوم التي راجت وازدهرت في العصر الفاطمي لاهتمام معظم الخلفاء الفاطميين^(٥) بهذا العلم. وكان معظمهم مغرما به ابتداء من العز لدين الله أول خلفائهم. أما الحاكم بأمر الله فكان أكثر المهتمين والمشتغلين، أقام لنفسه بيتا يستطيع منه رصد النجوم وكان ينقطع فيه أياما كثيرة من أجل ذلك، ثم كان إنشاؤه لدار الحكمة وتوفيره العناية للعلماء، فكانت علوم النجوم والفلك من العلوم التي حظيت برعايته، وتقدم عنده المنجمون ومن بينهم أبو الحسن علي بن سعيد^(٦) صاحب كتاب الزيج الحاكمي «وهي صناعة حسابية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته من سرعة وبطء ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأى وقت فرض من

(١) القرظي: الخطط ج ١ ص ٣٩٣. أحمد بدوي: الحياة العقلية ٢٨٧.

(٢) القرظي: الخطط ج ١ ص ٣٩٤.

(٣) القرظي: الخطط ج ١ ص ٣٩٤.

(٤) خطاب عطية: التعليم في مصر ص ١١٥.

(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣١٦. القرظي: الخطط ج ١ ص ٦، ٣، ج ٢ ص ٢٨٨ - أبو

المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٠، ١١٦ - ابن أبيك الدواداري: كنز الدرر ج ٦ ص ٢٥٦، ٢٥٧. خطاب

عطية: التعليم في مصر ص ١٧٧.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٨١. العيني: عقد الجمان ج ١٠ سنة ٣٩٩هـ أبو المحاسن: النجوم

الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩ - السيوطي: حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٨ - ابن كثير: البداية والنهاية ج ١١ ص ٣٤١.

قبل حسابه حركاتها»^(١) وممن اعتنى بعلم الفلك والنجوم من الوزراء المأمون البطائحي وزير الأمر ونقل المرصد من جبل المقطم إلى سطح باب النصر وأمر بما تدعو الحاجة إليه من النحاس والذهب والفضة، ولازم العمل في هذا المرصد طائفة من المهندسين والمنجمين. وكان المنجمون تطلق عليهم الأرزاق والكسوة على عمل التقويم في كل سنة^(٢) وقد وفر لهم الخلفاء الفاطميون الكثير من الكتب التي تتناول هذا الموضوع بالدراسة والشرح إذ يذكر أنه كان بإحدى خزائن الكتب الفاطمية من كتب النجوم والفلسفة حوالى ستة آلاف وخمسمائة جزء^(٣).

لذلك كان الناس يعتقدون في النجوم ومعرفة الطالع منها. فيذكر على بن رضوان رئيس الأطباء زمن الحاكم بأمر الله أنه اختار مهنة الطب وبدأ في دراستها وتعلمها بعد معرفة طالعها يقول: «وكانت دلالات النجوم في مولدى تدل على أن صناعتي الطب»^(٤) كما كانت النجامة مصدر رزق للعاملين بها يقول ابن رضوان أيضا: إنه عندما بدأ يتعلم الطب كان فقيرا محتاجا فكان يتكسب «بصناعة القضايا بالنجوم»^(٥).

الطب والتشريح:

كان نصيب علم الطب من الاهتمام لا يقل عن سائر العلوم الأخرى فقد كانت الدعوة لاعتناق المذهب وتخرجه دعائه تعتمد في بعض مراحلها التسعة على المعرفة بالتشريح ووظائف الأعضاء وفلسفة هذه المعلومات واستخدامها للدعاية لذهبهم كحجة طبيعية خلقها الله في جسم الإنسان. فكان الداعي يطرح بعض الأسئلة في المرحلة الأولى من الدعوة على المريد، مثلا: لم جعلت أعداد عظام الإنسان كذا؟ إلى غير ذلك من التشريح والقول في العروق والأعضاء ووجوه منافع الحيوان^(٦). وفي الدعوة الخامسة كان الداعي يقرر أنه لا بد من وجود اثنتي عشرة حجة لكل إمام من الأئمة. كما أن عدد الأئمة سبعة. ويستدلون على ذلك بأنه صار في ظهر الإنسان اثنتا عشرة خزيمة وصار في عنقه سبع^(٧).

واشتهر في العصر الفاطمي كثير من الأطباء على رأسهم على بن رضوان وتلميذه افرائيم بن الزقان وكانت لابن رضوان كثير من المناظرات والرسائل مع ابن بطلان الطبيب البغدادي ولم

(١) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(٢) أحمد بدوى: الحياة العقلية ص ٣٠٢.

(٣) القنطري: تاريخ الحكماء ص ٤٤٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ٩٩.

(٥) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٠٠.

(٦) المقرئ: الخطط ج ١ ص ٣٩١.

(٧) المقرئ: الخطط ج ١ ص ٣٩٣.

يكن أحد منهما يؤلف كتابا ولا يبتدع رأيا إلا ويرد الآخر عليه^(١) وكانت دراسة علم الطب غالبا ما تكون بالبيمارستان أو بدار العلم أو يقوم التلميذ بمصاحبة الطبيب الأستاذ والتتلمذ على يديه.

الرياضيات:

وتشمل علوم الحساب والجبر والهندسة وكانت هذه العلوم « يدرسها بعض خواص المتعلمين يومئذ كما أن الفقهاء، كانوا يدرسون الحساب والجبر لحاجتهم إليها في علم الفرائض »^(٢) ومن قام بتدريس هذه العلوم في مصر الحسن بن الهيثم الذي كان يلقي دروسه في الجامع الأزهر. وكانت له تصانيف عدة في هذه العلوم منها (تهذيب المجسطي) و(مصادر إقليدس) و(استخراج أضلع المكعب) وقد بلغت مؤلفات ابن الهيثم نحو مائتي كتاب في الرياضة والطبيعة والفلسفة وغيرها من العلوم^(٣). ومن نوابغ هذا العصر أيضا أمية بن أبي الصلت الذي توصل إلى بعض قوانين الروافع واستخدم هذه القوانين في محاولة رفع مركب محملة بالنحاس غرقت قريبا من الإسكندرية. وصنع لذلك بعض الآلات الهندسية لاستخدامها في رفع الأثقال الموجودة بالركب، ويبدو أن محاولته فشلت فحنق عليه الأفضل أمير الجيوش وأمر بحبسه ثم شفع فيه فأطلق سراحه^(٤).

ويذكر ابن العبري أنه في سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) كان يشتغل بعلم الهندسة في مصر المهندس أبو علي المصري وكان أديبا شاعرا غلبت الهندسة على بعض أشعاره^(٥).

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج٢ ص ١٠١، ص ١٠٥. انظر أحمد أمين: ظهر الإسلام ج١ ص ٢٠٤،

٢٠٥.

(٢) أحمد بدوي: الحياة العقلية في مصر ص ٢٩٩.

(٣) القفطي: أخبار الحكماء ص ١٦٥، ١٦٧ - ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج٢ ص ٩٠ - أحمد أمين:

ظهر الإسلام ج١ ص ٢٠٣، ٢٠٤ - ج٢ ص ١٩٣ - ١٩٤.

خطاب عطية: التعليم في مصر ص ١٣٢.

(٤) أحمد أمين ظهر الإسلام ج٢ ص ١٩٥، ١٩٦.

(٥) انظر: ابن العبري: مختصر الدول ص ٣٥٦ ومن هذه الأشعار قوله:

تقسم قلبي في محبه معشر بكل فتى منهم هوأى منوط
كان فؤادى مركز وهم له محيط وأهوأى لديه خطوط